الخلوة في الفكر الصوفي الإسلامي

د٠حسين علي ريس

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ورضي الله عن أصحابه أجمعين ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه القويم إلى يوم الدين وبعد:.

فمن أولويات أهل السلوك لطرق الترقية في طريق القوم هي المجاهدة امتثالا لأمر الله تعالى بقوله:(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) [١] .

فالخلوة هي أول المجاهدات للسالكين ، لما فيها من الفوائد وما لها من الثمرات من تخلية للنفس من الرذائل والمنكرات وتحليه بالفضائل والحسنات والفوز بالحياة الطيبة في الدنيا كما قال الله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [٢] ونيل الدرجات العلى في الجنة كما قال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه وذكر منهم (**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**) [٣] حيث فيها الأنس بالله تعالى ولذة المناجاة وذوق لحلاوة الإيمان وخصوصا في مثل هذه الأيام التي

تموج بالفتن كموج البحار عند هيجان الريح ،لذلك اخترت هذا البحث لعلي أضع من يطلع عليه ويقتنع بما فيه على أول خطوات السير في الطريق الصحيح، الذي ما فاز من فاز من سلف هذه الأمة المباركة إلا بالرجوع إليه ، وقد أسميته((**الخلوة في**

---

١ . سورة العنكبوت من الآية / ٦٩ .
٢ . سورة النحل الآية / ٩٧ .
٣. الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي ـ ٨ / ٤٠٤ ، رقم الحديث : ٢٣١٣ .الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي ، (ت ٢٩٧ هـ)تحقيق يوسف كمال الحوت ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م .

الفكر الصوفي الإسلامي)) وقد جمعت فيه من كلام أجلة العلماء ، وقسمته إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة : المبحث الأول تعريفها في اللغة وفي الاصطلاح ، المبحث الثاني الأدلة من القرآن والسنة مع توضيح لبعض الإشكالات ، المبحث الثالث كيفيتها ،المبحث الرابع أقوال العلماء فيها،هذا واسأل الله أن ينفعني به والمسلمين أجمعين .

المبحث الأول :تعريف الخلوة لغة واصطلاحا

المطلب الأول : الخلوة لغة

ذكر علماء اللغة للخلوة عدة تعريفات واشتقاقات أذكر منها ما يأتي:.

تعريف الجرجاني في التعريفات:

الخلوة : محادثة السر مع الحق، حيث لا أحد ولا ملك.[١]

تعريف الرازي في مختار الصحاح : –

خ ل ا خلا الشيء من باب سَمَا. وخَلَوْت به خَلْوةً وخَلاَء وخَلاَ إليه اجتمع معه في خَلْوةً. قال الله تعالى (وإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينهم)[٢] وقيل إلى بمعنى مَع كما في قوله تعالى (مَنْ أَنْصَاري إلى الله) [٣]. وقولهُ تعالى (وإنْ من أُمَّةٍ إلا خَلاَ فيها نَذِيرٌ) [٤] أي مَضَى وأَرْسل. وتقول أَنَا مِنْك خَلاَءٌ أي بَرَاءٌ لا يُثَنَّى ولا يُجْمَع لأَنّه مَصْدَرٌ وأَنَأ مِنْكَ خَلِيٌّ أَيْ بَرِيء فَيُثَنَّى ويُجْمَع لأنّه اسمٌ. والخَلاَء بالمدّ المُتَوَضَّأ. والخَلاَء أيضاً المَكَان الذي لا شَيْءَ به. والخَلِيَّةُ النَّاقَةُ تُطْلَق من عقَالها ويُخَلَّى عنها. ويقال للمرأة أنتِ خَلِيّةٌ كِنَاية عن الطلاق. والخَلِيّة أيضاً السَّفِينة العظيمة. وهي أيضاً بَيْتُ النَّحْل الذي تُعَسِّل فيه. وخَلاَ كَلمةٌ يُسْتَثْنَى بها وتَنْصِب ما بعدها وتَجُرّ. تقول جاءوني خَلاَ زيداً تَنْصِب إذا جَعَلْتَها فِعْلاً وتُضْمِر فيها الفَاعلّ كأنك قلت خَلاَ مَنْ جَاءنِي مِن زيد. وإذا قُلْتَ خَلاَ زيدِ فَجَرَرْتَ فهي عند بعض النَّحْويين حَرف جرّ

1.التعريفات عبد القاهر علي بن محمد بن علي الجرجاني: ١ / ٣٣ (ت ٨١٦ هـ)، ،تحقيق : إبراهيم الأبياري ، (ط١ ،دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٤٠٥هـ). .
2. سورة البقرة من الآية / ١٤ .
3. سورة الصف من الآية / ١٤ .
4. سورة فاطر من الآية / ٢٤ .

بمنزلة حَاشَى وعند بعضهم مصدرٌ مُضَافٌ. وأمَا ما حَلاَ فلا يكون فيما بعدها إلا النَّصْب تقول جَاءوني ما خَلاَ زَيْداً. وقولهم افْعَلْ كذا وخَلاَكَ ذَمٌ أي أَعْذَرْت وسَقَط عنك الذَّمُّ. والخَلِيّ الخَالي من الهَمّ وهو ضدّ الشَّجيّ. والقُرُون الخالِيَة هُمُ المَوَاضِي. والخَلَى مقصور الرَّطْب من الحَشِيش الواحدةُ خَلاَةٌ وخَلَيْتُ الخَلَى قَطَعْته وبابه رَمَى واخْتَلَيْتُه أيضاً. والمِخْلَى ما يُقْطَع به الخَلَى. والمِخْلاة ما يُجْعَلُ فيها الخَلَى وأَخْلَت الأَرضُ كَثُرَ خَلاَهَا. وخَلاَ لَهُ الشيءُ وأَخْلَى بمعنًى وأَخْلَيْتُ المَكانَ صادَفتهُ خَالِياً. وأَخْلَى الرَّجُل أي خَلاَ وأَخْلَى غيرَه يتعدّى ويَلْزَم وأَخْلَى عن الطَّعَام خَلاَ عنه. و خَالَيْتُ الرَّجُلَ تَاركْتُه وتخَلَّ تَفَرَّغَ. وخَلَّى عَنْهُ وخَلَّ سبيلَه تَخْلِيَةً فيهما فهو مُخَلَّى ورأيته مُخَلِّياً.

قلت: وهذا نادِرٌ أَنْ يكون الاسم المَقْصور في حالة النصب بخلافة في حالة الرفع والجرّ كالمَنْقُوص.(١)

تعريف الامام الجوهري في الصحاح. (٢)

خَلا الشيءُ يَخْلو خُلُوّاً. وخَلَوْتُ به خَلْوَةً وخَلاءً. وخَلَوْتُ به، أي سخِرْتُ به. وخَلَوْتُ إليه، إذا اجتمعتَ معه في خَلْوَةٍ. قال الله تعالى: " وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم " . ويقال: إلى هنا بمعنى مَعَ، كما قال: " مَنْ أنصاري إلى الله "

وأَخْلَيْتُ المكان: صادفته خالياً. واسْتِخْلاءُ مجلسَه، أي سأله أن يُخْلِيَهُ له. وأَخْلَيْتُ، أي خَلَوْتُ. وأَخْلَيْتُ غيري، يتعدَّى ولا يتعدّى. قال عُتَيُّ بن مالكٍ العُقَيليّ:

أتيتُ مع الحُدَّاثِ لَيْلى فلم أُبِنْ ... فأَخْلَيْتُ فاسْتَعْجَمْتُ عند خَلائي

وأُخْلَيْتُ عن الطعام، أي خَلَوْتُ عنه. وخالَيْتُ الرجل: تاركته. وتَخَلَّيْتُ: تفرّغتُ. وخَلَّيْتُ عنه. وخَلّيْتُ سبيله، فهو مُخَلَّى. ورأيته مُخَلَّياً. قال الشاعر:

مالي أَراكَ مُخَلّياً ... أين السلاسلُ والقيودُ

أَغَلا الحديدُ بأرضكمْ ... أم ليس يَضْبِطُكَ الحديدُ .(٣)

وقال أبو هلال العسكري في الفروق اللغوية–

---

١ . مختار الصحاح محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي - ١ / ٩٢ .

٢ .الصحاح في اللغة الامام اسماعيل بن حماد الجوهري :١ / ١٨٦ ، (ت ٣٩٨ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م

٣ . الصحاح للإمام العالم العلامة أبي نصر إسماعيل ابن حماد الجوهري ١ / ١٨٦ .

ومات خلق كثير من شهوة الخلوة مع المعشوق والنيل منه. [١]

كما أورد الأزهري في تهذيب اللغة قول عنترة:

أقوَى وأقفَرَ بعد أمِّ الهيثّمِ

فمعنى أقوى وأقفر واحد يدل، على ا لخلوة، إلا أن اللفظين أوكَدُ في الخلوة.[٢]

وقال صاحب كتاب العين –

والجنبة: الناحية من كل شئ، كأنه شبه الخلوة من الناس.[٣]

وأفاد صاحب القاموس الفقهي –

بأن الخلوة: مكان الانفراد بالنفس، أو بغيرها.[٤]

وورد في النهاية في غريب الأثر –

{ خلا } في حديث الرُّؤْيا [أَلَيْس كُلُّكم يرَى القمرَ مُخْلِياً به] يُقال خَلَوْت به ومَعه وإليه . وأَخْلَيْت به إذا انْفَرَدْت به : أي كُلُّكم يرَاهُ مُنْفرِداً لنَفْسِه كقوله : لا تُضَارُّون في رُؤيته. [٥]

من خلال التمحيص والاستقراء لكل ما تقدم من التعريفات والاشتقاقات يتبين لنا أن المعنى العام للخلوة يدور حول عدة كلمات منها : التفرغ ، الاختلاء ، الانقطاع ،الانفراد. وكلها بمعنى التخلي عن الخلق والاستيحاش منهم ، والتزام الحق والتمسك بما يرضيه والفرار عن ما يغضبه وهذا منهج السلف الصالح من هذه الأمة وهو موضوع البحث.

المطلب الثاني :الخلوة اصطلاحا

قال الشيخ أحمد زروق في قواعده: (الخلوة أخص من العزلة، وهي بوجهها وصورتها نوع من الاعتكاف، ولكن لا في المسجد، وربما كانت فيه، وأكثرها عند القوم لا حدَّ له، لكن السنة تشير للأربعين بمواعدة موسى عليه السلام، والقصد في الحقيقة ثلاثون، إذ هي أصل المواعدة، وجاور عليه النبي عليه الصلاة والسلام

١. الفروق اللغوية- أبو هلال العسكري- ١ / ٣٥٩ .
٢ .تهذيب اللغة الأزهري - ١ / ١٣١ .
٣. العين الخليل الفراهيدي - ٦ / ١٤٧ .
٤. القاموس الفقهي - ١ / ١٢٢ .
٥. النهاية في غريب الأثر - ٢ / ١٤٦ أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر احمد الزاوي و محمود محمد الطناحي عدد الأجزاء (٥) الناشر دار الكتب العلمية بيروت١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

بحراء شهراً ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي..." [١]، وكذا اعتزل نساءه، وشهر الصوم واحد. وزيادة القصد ونقصانه كالمريد في سلوكه. وأقلها عشرة لاعتكافه عليه الصلاة والسلام للعشر، وهي للكامل زيادة في حاله، ولغيره ترقية، ولا بد من أصل يُرجع إليه. والقصد بها تطهير القلب من أدناس الملابسة، وإفراد القلب لذكر واحد، وحقيقة واحدة، ولكنها بلا شيخ مخطرة، ولها فتوح عظيم، وقد لا تصح بأقوام، فليعتبر كل أحد بها حالَه)[٢] .

فالخلوة إذن: انقطاع عن البشر لفترة محدودة، وترك للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة، كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكرٌ لله تعالى بقلب حاضر خاشع، وتفكرٌ في آلائه تعالى آناء الليل وأطراف النهار، وذلك بإرشاد شيخ عارف بالله، يُعلِّمه إذا جهل، ويذكِّره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوساوس وهواجس النفس.

المبحث الثاني : الأدلة من القرآن والسنة مع توضيح لبعض الإشكالات .

المطلب الأول : الدليل من القرآن الكريم .

قال تعالى: **{واذكرِ اسم ربِّكَ وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً}**[٣] .

قال العلامة أبو السعود مفسراً قوله تعالى: **{واذكُرِ اسمَ ربِّك...}**[٤] : (ودُم على ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان ؛ من التسبيح والتهليل والتحميد... إلى أن قال: وانقطعَ إليه بمجامع الهمة

العزيمة واستغراق في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه عليه الصلاة والسلام عن العوائق الصادرة المانعة عن مراقبة الله تعالى، وقطع العلائق عما سواه)[٥] .

وكل أمرٍ أُمِر به صلى الله عليه وسلم تشريع له ولأمته إلا فيما خُصَّ به، وخصوصياته معروفة، وهذا الأمر في هذه الآية المذكورة عام له ولأمته.

---

١ . رواه مسلم في صحيحه ، باب بدء الوحي : ١ / ٣٨٣ ، رقم ٢٣٣ ، وأحمد في مسنده ٢٨ / ٣١٨ ، ١٣٧٦٩ .

٤. قواعد التصوف /٣٩ لأبي العباس الشيخ أحمد الفاسي المشهور بزروق توفي سنة ٨٩٩هـ في طرابلس الغرب .

١ . سورة المزمل: من الآية ٨ .

٢ . سورة المزمل: من الآية ٨ .

٣ . تفسير العلامة أبي السعود على هامش تفسير فخر الدين الرازي ، ٣٣/٨. مطبعة اسطنبول ١٣٠٧ هـ .

المطلب الثاني : الدليل من السنة .

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أولُ ما بُدِىءَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِراءَ ؛ فيتَحَنَّثُ فيه . وهو التعبد . الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، ويتزود لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء)[١] .

قال ابن أبي جمرة في شرحه لهذا الحديث: (في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما اعتزل عن الناس وخلا بنفسه، أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم له من مقامات الولاية .

وفيه دليل على أن الأولى بأهل البداية الخلوة والاعتزال، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان في أول أمره يخلو بنفسه.

وفيه دليل على أن البداية ليست كالنهاية، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أول ما بُدِىءَ في نبوته بالمرائي، فما زال عليه الصلاة والسلام يرتقي في الدرجات والفضل، حتى جاءه المَلكُ في اليقظة بالوحي، ثم ما زال يرتقي، حتى كان كقاب قوسين أو أدنى، وهي النهاية. فإذا كان هذا في الرسل فكيف به في الأتباع ؟! لكن بين الرسل والأتباع فرق، وهو أن الأتباع يترقون في مقامات الولاية . ما عدا مقام النبوة ، فإنه لا سبيل لهم إليها، لأن ذلك قد طُوِيَ بساطه . حتى ينتهوا إلى مقام المعرفة والرضا، وهو أعلى مقامات الولاية.

ولأجل هذا تقول الصوفية: (من نال مقاماً فدام عليه بأدبه ترقى إلى ما هو أعلى منه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أولاً في التحنث ودام عليه بأدبه، إلى أن ترقى من مقام إلى مقام، حتى وصل إلى مقام النبوة، ثم أخذ في الترقي في مقامات النبوة حتى وصل به المقام إلى قاب قوسين أو أدنى كما تقدم. فالوارثون له بتلك النسبة ؛ من دام منهم على التأدب في المقام الذي أُقيم فيه ترقى في المقامات حيث شاء الله، عدا مقام النبوة التي لا مشاركة للغير فيها بعد النبي صلى الله عليه وسلم)[٢] .

وقال القسطلاني رحمه الله تعالى في شرحه لحديث عائشة المذكور: (وفيه تنبيه على فضل العزلة لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا، وتفرغه لله تعالى، فتنفجر منه ينابيع الحكمة. والخلوة

---

٤ . رواه البخاري في صحيحه باب بدء الوحي : ١ / ٥ ، رقم الحديث ٣ .

١ . "بهجة النفوس" شرح مختصر البخاري للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المتوفى ٦٩٩هـ، ١٠/١ ـ ١١.

أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يصير خليقاً بأن يكون قالبه ممراً لواردات علوم الغيب، وقلبه مقراً لها)[١] .

المطلب الثالث : توضيح لبعض الإشكالات.

فإن قلتَ: أمر الغار قبل الرسالة، ولا حكم إلا بعد الرسالة ؟ قال المحدث القسطلاني مجيباً: (إنه أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام من الوحي الرؤيا الصالحة، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء كما مر، فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحي، لأن كلمة [ثم] للترتيب. وأيضاً لو لم تكن من الدين لنهى عنها، بل هي ذريعة لمجيء الحق، وظهورُه مبارك عليه وعلى أمته تأسِّياً وسلامة من المناكير وضررها، ولها شروط مذكورة في محلها من كتب القوم)[٢] .

وقال المحدث الكشميري رحمه الله تعالى معلقاً على هذه الفقرة من الحديث: (ثم حُبِّبَ إليه الخلاء): (وهذا على نحو مجاهدات الصوفية وخلواتهم، ثم إن اعتكاف الفقهاء وخلوات الصوفية عندي قريب من السواء)[٣] .

وقال الزهري رحمه الله تعالى: (عجباً من الناس، كيف تركوا الاعتكاف، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل الشيء ويتركه، وما ترك الاعتكاف حتى قُبِض)[٤] .

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح حديث عائشة عند قوله: "حبب إليه الخلاء": (أما الخلاء فهو الخلوة، وهي شأن الصالحين، وعباد الله العارفين. ثم قال: قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: حُبِّبَتْ إليه العزلة صلى الله عليه وسلم لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه)[٥] .

وقال شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى في شرحه على حديث عائشة المذكور عند قوله: (ثم حبب إليه الخلاء): (والخلاء بالمد: الخلوة، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له... إلى أن قال: وإلا فأصل الخلوة قد عُرفتْ مدتها وهي شهر، وذلك الشهر كان رمضان)[٦] .

وقال العلامة الكبير محمود العيني رحمه الله تعالى في شرحه على حديث عائشة عند الأسئلة والأجوبة: (الوجه الثالث: ما قيل: لِمَ حُبِّبَ إليه الخلوة ؟ أجيب بأن معها فراغ القلب،

---

٢ . إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٦٢/١ للقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ. المتوفى سنة ٩٢٣هـ مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ.
٣ . المصدر السابق: ٦٢./١
٤ . فيض الباري على صحيح البخاري ٢٣/١. للكشميري الديوبندي المطبعة البهية بمصر١٣٤٨ هـ .
١ . حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ٤٦٣، مطبعة بولاق ١٢٩٠ هـ .
٢. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ١٩٨./٢
٣ . فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني ١٨/١.

وهي معينة على التفكر، والبشر لا ينتقل عن طبيعته إلا بالرياضة البليغة، فحُبِّبَ إليه الخلوة لينقطع عن مخالطة البشر، فينسى المألوفات من عادته)[١] .

وقال الكرماني رحمه الله تعالى في شرحه لحديث عائشة رضي الله عنها المذكور: (ثم حبب إليه الخلاء بالمد وهو الخلوة، وهو شأن الصالحين وعباد الله العارفين، حببت إليه العزلة لأن فيها فراغ القلب، وهي معينة على التعبد وبها ينقطع عن مألوفات البشر ويخشع قلبه)[٢] .

هذه أقوال علماء الحديث وشراحه في الخلوة من حيث تسميتها، ومن حيث مشروعيتها، ومن حيث فوائدها، ومن حيث اعتناء السلف الصالح بها ؛ فليقل المغرضون بعد ذلك ما شاءوا.

وما أحسن قول البوصيري رحمه الله تعالى في همزيته يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدايته:

أَلِفَ النُسكَ والعِبَادَةَ والخَلْوَةَ طفلاً وهكذا النجباءُ قال شارح الهمزية محمد بن أحمد بنيس رحمه الله تعالى: (وروى ابن إسحاق وغيره أنه عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى حراء شهراً في كل عام يتنسَّك فيه)[٣] .

وقال المناوي رحمه الله تعالى : (حبب إليه صلى الله عليه وسلم الخلاء والانفراد والنفور من المخالطة حتى في الأهل والمال والعيال بالكلية، واستغرق في بحر الأذكار العلية، فانقطع عن الأضداد، فاستشعر حصول المراد، وحصل له الأنس بالخلوة، فتذكر من أجل ذلك الجلوة، ولم يزل ذلك الأنس يتضاعف، ومرآته تزداد من الصفاء والصقال، حتى بلغ أقصى درجات الكمال، فظهرت تباشير صبح الوحي وأشرقت، وانتشرت بروق السعادة وأبرقت، فكان لا يمر بشجر وحجر، إلا قال بلسان صحيح ونطق فصيح: السلام عليك يا رسول الله، فلا يرى شيئاً)[٤] .

وقال سليمان الجمل رحمه الله تعالى شارحاً للهمزية: (وكان تَعَبُّدَهُ صلى الله عليه وسلم أنه يخرج إلى حراء شهراً في كل عام يتنسك فيه، حتى إذا انصرف من مجاورته في حراء، لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة، وكان يعبد الله في حِراء بالذكر والفكر، وكان يكثر الخلوة في غير حراء أيضاً)[٥] .

ومن غار حراء انبثق النور، وأطل الفجر، وانطلقت اللمعة الأولى في نور التصوف الإسلامي، وما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الخلوة، بعد أن خرج من الغار، فكان بعدئذ يخلو في العشر الأواخر من رمضان، وقد سماه الفقهاء اعتكافاً.

---

٤ . عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ ، ١/٦٠ ـ ٦١.
٥ . شرح صحيح البخاري للعلامة الكرماني ج١/ص٣٢ ، المطبعة البهية بمصر ١٢٥٨ هـ .
٦. رواه البيهقي في دلائل النبوة: ٢ / ١٤ ، رقم ٤٥١ .موقع جامع الحديث .
١ . لوامع الكوكب الدري في شرح الهمزية ، للبوصيري ، ٤٨ ـ ٤٩. مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٤٦ هـ
٢ . الفتوحات الأحمدية بالمنح المحمدية على شرح الهمزية ، سليمان الجمل :٢١.المطبعة الخيرية بمصر١٣٠٣هـ

فإذن ليست الخلوة ابتداعاً من الصوفية، وإنما هي امتثال لأمر الله تعالى في كتابه العزيز، وتأسٍّ واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يخلو بغار حراء يتعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء. وبهذا تكون قد ثبتت مشروعيتها في الكتاب والسنة .

المبحث الثالث:كيفيتها و العقبات التي تعترض صاحبها

المطلب الأول : كيفيتها

يذكر الإمام الغزالي رحمه الله طريقة الخلوة ومراحلها ومقاماتها، فيبين: (أن الشيخ يُلزِم المريد زاوية ينفرد بها، ويوكل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال . فإنَّ أصل الدين القوت الحلال . وعند ذلك يلقنه ذكراً من الأذكار، حتى يشغل به لسانه وقلبه، فيجلس ويقول مثلاً: الله، أو سبحان الله، سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات، فلا يزال يواظب عليه، حتى يسقط الأثر عن اللسان، وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تُمحى من القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبة عليه، قد فرغ عن كل ما سواه، لأن القلب إذا اشتغل بشيء خلا عن غيره . أيَّ شيء كان . فإذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود، خلا لا محالة من غيره)[١].

(وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب، والخواطر التي تتعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه . ولو في لحظة . خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة، وكان أيضاً نقصاناً. فليجتهد في دفع ذلك، ومهما دفع الوساوس كلها، وردَّ النفس إلى هذه الكلمة، جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وإنها ما هي ؟ وما معنى قولنا: الله ؟ ولأي معنى كان إلهاً، وكان معبوداً ؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر، وربما يَرِدُ عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارهاً لذلك، ومشمرا لإماطته عن القلب لم يضره ذلك) [٢].

المطلب الثاني : العقبات التي تعترض صاحب الخلوة

٣ . الأحياء الإمام الغزالي : ٣/ ٦٦ ، مطبعة ألبابي الحلبي ١٣٤٦ هـ .
١ . الإحياء الغزالي ٣ / ٦٦ .

وهي منقسمة إلى قسمين :

(أ . ما يعلم قطعاً أن الله تعالى منزه عنه، ولكن الشيطان يُلْقي ذلك في قلبه، ويُجريه على خاطره، فَشَرْطُهُ أن لا يبالي به، ويفزع إلى ذكر الله تعالى، ويبتهل إليه ليدفعه عنه، كما قال تعالى: **{وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ فاستعذ باللهِ إنَّهُ سميعٌ عليمٌ}**[١] . و قال تعالى: **{إنَّ الذينَ اتَّقَوا إذا مسَّهُم طائفٌ مِنَ الشيطان تذَكَّروا فإذا هم مبصرونَ}**[٢] .

ب . ما يشك فيه، فينبغي أن يَعرض ذلك على شيخه، بل كلُّ ما يجد في قلبه من الأحوال، من فترة أو نشاط، أو التفات إلى علْقة، أو صدق في إرادة، فينبغي أن يُظهر ذلك لشيخه، وأن يستره عن غيره، فلا يطلع عليه أحداً)[٣] .

المبحث الرابع : أقوال العلماء في أهمية الخلوة وفوائدها

إن للخلوة فوائد جليلة وآثاراً هامة، وإنما يدركها من ذاق حلاوتها وجنى ثمارها. فمن فوائدها:

تهذيب النفس وتزكيتها، ورياضتها على طاعة الله تعالى، والاستئناس بمجالسته ؛ لأن من طبائع النفس الأمارة حب مجالسة الناس، والميلَ إلى اللهو والعبث والبطالة، وكراهيةَ الخلوة مع الله، والنفورَ من الانفراد للمحاسبة على الهفوات واللوم على الأخطاء. فإذا جاهدناها على ذلك، فإنها تشعر بالضيق والضجر في بادئ أمرها، ولكن سرعان ما تُذعِنُ وتخضع، ثم تذوق حلاوة الأنس بالله ولذة مناجاته، وخصوصاً عندما تنطلق، وتتحرر من قيود المادة، وتسبح في عوالم الملكوت ؛ إذ الخلوة تروض النفسَ على الإذعان لبارئها والأنس بربها.

ألا ترى الطير البازي كيف كان نفاره من الآدميين في الجبال الشامخات، ثم حين يُصاد ويلقى في البيت، وتخاط عيناه حتى ينقطع عن الطيران، ويربى باللحم، ويرفق به، حتى يأنس بصاحبه، ويألفه إلفاً ؛ إذا دعاه فسمع صوته أجابه، حتى إذا أرسله وحثَّه على الطيران طار، فصاد وأمسك صيده، تحرياً لموافقة مولاه، ثم إن دعاه من الطيران رجع، وآثر هوى صاحبه على هوى نفسه.

أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمداً وعبرة وأسفاً على فوت هذا من نفسه، أن يكون طيره أسمع له وأطوع، وأشد تحرياً لموافقته وألزم لنصيحته من العبد المؤمن لربه.

---

٢ . سورة الأعراف: ٢٠٠ .
٣ . سورة الأعراف: ٢٠١.
٤ . الإحياء للغزالي :٦٦/٣ .

والخلوة تريح القلب والفكر والعقل من الشواغل الدنيوية المتعاقبة، وهمومها المتلاحقة، وعند ذلك يذوق العبد طعم الإيمان، ويستنشق نسيم السعادة والطمأنينة. وإليك بعض أقوال السادة العلماء في ذلك:

المطلب الأول : أقوال العلماء

١ . الفيروز أبادي صاحب القاموس:

قال العلامة الكبير الفيروز أبادي رحمه الله تعالى صاحب القاموس في ذكر حال حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي: ولما قربت أيام الوحي أحب الخلوة والانفراد، فكان يتخلى في جبل حراء، وهو على ثلاثة أميال من الكعبة، وبه غار صغير طوله أربعة أذرع وعرضه ذراع وثلث في بعض المواضع، وفي بعضها أقل، واختار محل الخلوة هناك[١].

وأورد العلامة الفيروز أبادي رحمه الله وصفا لعبادته وخلوته لبعض العلماء، فقال : وللعلماء لعبادته في خلوته قولان: قال بعضهم: كانت عبادته بالفكر، وقال بعضهم: بالذكر.

وهذا القول هو الصحيح، ولا تعريج على الأول ولا التفات إليه ؛ لأن خلوة طلاب طريق الحق على أنواع:

الأول: أن تكون خلوتهم لطلب مزيد علم الحق من الحق لا بطريق النظر والفكر، وهذا غاية مقاصد أهل الحق، لأن من خاطب في خلوته كوناً من الأكوان، أو فكَّر فيه فليس هو في خلوة. قال شخص من طلاب الطريق لبعض الأكابر: اذكرني عند ربك في خلوتك. قال: إذا ذكرتك فلستُ معه في خلوة. ومن ثَمَّ يُعلم سر "أنا جليس مَنْ ذكرني". وشرط هذه الخلوة أن يذكر بنفسه وروحه، لا بنفسه ولسانه.

الثاني: أن تكون خلوتهم لصفاء الفكر لكي يصح نظرهم في طلب المعلومات، وهذه الخلوة لقوم يطلبون العلم من ميزان العقل، وذلك الميزان في غاية اللطافة، وهو بأدنى هوى يخرج عن الاستقامة، وطلاب طريق الحق لا يدخلون في مثل هذه الخلوة، بل تكون خلوتهم للذكر، وليس للفكر عليهم قدرة ولا سلطان، ومهما وُجِدَ الفكر إلى صاحب الخلوة فينبغي أن يعلم أنه ليس من أهل الخلوة، ويخرج من الخلوة ويعلم أنه ليس من أهل العلم الصحيح الإلهي، إذ لو كان من أهل ذلك لحالت العناية الإلهية بينه وبين دوران رأسه بالفكر.

الثالث: خلوة يفعلها جماعة لدفع الوحشة من مخالطة غير الجنس، والاشتغال بما لا يعني، فإنهم إذا رأوا الخلق انقبضوا، فلذلك اختاروا الخلوة.

الرابع: خلوة لطلب زيادة لذة توجد في الخلوة.

---

١. سفر السعادة ، الفيروزأبادي (ت ٨٢٦ هـ) ٣- ٤ .

وخلوة حضرة صاحب الرسالة من القسم الأول، وكان بعيداً جداً من جميع المخالطات حتى الأهل والمال وذات اليد، واستغرق في بحر الأذكار القلبية، وانقطع عن الأضداد بالكلية، وظهر له الأنس والجلوة بتذكر مَنْ لأجله الخلوة، ولم يزل في ذلك الأنس، ومرآة الوحي تزداد من الصفاء والصقال حتى بلغ أقصى درجات الكمال)[١] .

٢ . الإمام الشافعي:

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (ومن أحب أن يفتح الله قلبه، ويرزقه العلم، فعليه بالخلوة وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذي ليس معهم إنصاف ولا أدب)[٢] .

٣ .الإمام الغزالي:

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: (وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل، وضبط السمع والبصر، فإنهما دهليز القلب، والقلب في حكم حوض تنصب إليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس. ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ؛ ليتفجر أصل الحوض، فيخرج منه الماء النظيف الطاهر. وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض، والأنهار مفتوحة إليه ؟ فيتجدد في كل حال أكثر مما ينقص. فلا بد من ضبط الحواس إلا عن قدر الضرورة، وليس يتم ذلك إلا بالخلوة)[٣] .

وعندما يسلم من علله وأمراضه وتعلقاته ومشاغله، وخواطر الشيطان ووساوسه، يستحق نعيم قربه ويستعد لتلقي العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، والنفحات النورانية.

وقال الغزالي أيضاً: (وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أُمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره ليُنتفعَ به، أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصْوَبُ الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمِع عقل العقلاء، وحكمة العلماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سَيْرِهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به)[٤] .

٤. الشيخ الأكبر:

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (رحمه الله تعالى): (فإن المتأهب الطالب للمزيد، المتعرض لنفحات الجود بأسرار الوجود إذا لزم الخلوة والذكر، وفرَّغ المحل من الفكر، وقعد فقيراً

١ . سفر السعادة للفيروز أبادي المتوفى سنة ٨٢٦هـ ، ٣ ـ ٤.
٢ . بستان العارفين للإمام الفقيه الحافظ أبي زكريا محي الدين النووي المتوفى ٦٧٦هـ ، ٤٧.
٣ . الإحياء للغزالي ٦٦/٣.
١. المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي ، ١٣١ ـ ١٣٢.

لا شيء له عند باب ربه، حينئذ يمنحه الله تعالى، ويعطيه من العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده الخضر في أصح الأقوال فقال: {**عبْداً مِنْ عِبادِنا آتيناهُ رحمَةً مِنْ عندِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا علماً**}[١] ، وقال تعالى: {**واتَّقوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ**}[٢] ، قال تعالى: {**إنْ تتَّقوا اللهَ يَجعَلْ لكُمْ فُرقاناً**}[٣] ،[**وقال: {ويجعلْ لَكُمْ نُوراً تمشونَ به**}[٤] .

وقيل للجنيد: بم نلت ما نلت ؟ فقال: بجلوسي تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة. وقال أبو يزيد: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. فيحصل لصاحب الهمة في الخلوة مع الله وبه جلَّت هيبته وعظمت منته، من العلوم ما يغيب عندها كل متكلم على البسيطة، بل كل صاحب نظر وبرهان، ليست له هذه الحالة)[٥] .

٥. محمد السفاريني:

وقال العلامة محمد السفاريني الحنبلي رحمه الله تعالى شارحاً قصيدة "منظومة الآداب": (وقد أكثر الناس من مدح الخلوة، وكفِّ رِجْلِ الرجل عن الاختلاط بالناس[٦] :

أنستُ بوحدتي ولزمتُ بيتي فدام الأُنسُ لي ونما السرورُ

٦. الدكتور مصطفي السباعي:

وقال الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى في كتابه "مذكرات في فقه السيرة": (يجب على الداعية إلى الله أن تكون له بين الفَيْنة والفَيْنة أوقات يخلو فيها بنفسه، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه، وتصفو فيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة والحياة المضطربة من حوله. ومثل هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت في خير، أو زلت في اتجاه، أو جانبت سبيل الحكمة، أو أخطأت في منهج أو طريق، أو انغمست مع الناس في الجدال والنقاش، حتى أنْسَتْهُ تذكُّرَ الله والأنس به، وتذكر الآخرة وجنتها ونارها والموتِ وغصصه وآلامه. ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضاً في حق النبي صلى الله عليه وسلم، مستحباً في حق غيره. وأحق الناس بالحرص على هذه النافلة هم الدعاة إلى الله وشريعته وجنته. وللخلوة والقيام لله بالعبودية في أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها. وقد كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول في أعقاب تهجده وعبادته: نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها)[٧] .

٧. عماد الدين الواسطي:

---

٢ . سورة الكهف : من الآية : ٦٥.
٣. سورة البقرة : من الآية ٢٨٢.
٤. سورة الأنفال : من الآية ٢٩.
٥. سورة الحديد : من الآية ٢٨.
٦ . الفتوحات المكية ٣١/١ ، الشيخ الأكبر محي الدين المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٩ هـ .
٧ . غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للشيخ الإمام محمد السفاريني الحنبلي المتوفى سنة ١١٨٨هـ. ٣٨٨./٢
١ . مذكرات في فقه السيرة للدكتور مصطفى السباعي ص.١٨

ويقول الشيخ الإمام عماد الدين أحمد الواسطي: (وليكن لنا جميعاً من الليل والنهار ساعة نخلو فيها بربنا جل اسمه وتعالى قدسه، نجمع بين يديه في تلك الساعة همومنا ونطرح أشغال الدنيا عن قلوبنا، فنزهد فيما سوى الله ساعة من نهار، فبذلك يعرف الإنسان حاله مع ربه، فمن كان له مع ربه حال، تحركت في تلك الساعة عزائمه، وابتهجت بالمحبة والتعظيم سرائره، وطالت إلى العلا زفراته وكوامنه.

وتلك الساعة أنموذج لحالة العبد في قبره حين خلوه عن ماله وولده. فمن لم يخل قلبه لله ساعة من نهار لَمَا احتوشته من الهموم الدنيوية ذواتُ الآصار، فليعلم أنه ليس له ثَمَّ رابطة علوية، ولا نصيب من المحبة ولا المحبوبية، فليبك على نفسه، ولا يرض منها إلا بنصيب من قرب ربه وأُنسه. فإذا خلصت لله تلك الساعة ؛ أمكن إيقاع الصلوات الخمس على نمطها من الحضور والخشية والهيبة للرب العظيم في السجود والركوع، فلا ينبغي أن نبخل على أنفسنا في اليوم والليلة من أربع وعشرين ساعة، بساعة لله الواحد القهار، نعبده فيها حق عبادته، ثم نجتهد على إيقاع الصلوات على ذلك النهج)[١] .

٨. ابن عجيبة:

وقال ابن عجيبة في إيقاظ الهمم لشرحه كتاب الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري رحمهما الله تعالى: ما نفعَ القلبَ شيءٌ مثلُ عُزلةٍ يدخل بها مَيْدانَ فكرة:

(والعزلة انفراد القلب بالله. وقد يراد بها الخلوة التي هي انفراد القالب عن الناس، وهو المراد هنا، إذ لا ينفرد القلب بالله إلا إذا انفرد القالب. والفكرة سير القلب إلى حضرة الرب، وهي على قسمين: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان. ولا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة، لأن العزلة كالحِمْية، والفكرة كالدواء، فلا ينفع الدواء بغير حمية، ولا فائدة في الحمية من غير دواء، فلا خير في عزلة لا فكرة فيها ولا نهوض بفكرة لا عزلة معها، إذ المقصود من العزلة هو تفريغ القلب، والمقصود من التفرغ هو جَولاَن القلب واشتغال الفكرة، والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغاية صحته، وهو الذي سماه الله القلب السليم، قال الله تعالى في شأن القيامة: {يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بَنونَ إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ} [٢].

وقد قالوا: إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت، ولا ينفعها إلا الحمية، وهو قلة موادها، ومنعها من كثرة الأخلاط (المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء). وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض، وربما مات، ولا ينفعه إلا الحمية منها، والفرار

---

٢ . غذاء الألباب ٤٧/١.

١. سورة الشعراء:الآية ٨٨-٨٩.

من مواطنها، وهي الخلطة، فإذا اعتزل الناس واستعمل الفكرة نجح دواؤه، واستقام قلبه، وإلا بقي سقيماً حتى يلقى الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة، نسأل الله العافية.[١]

المطلب الثاني : فوائد الخلوة

قال الجنيد رحمه الله تعالى: أشرف المجالس الجلوس مع الفكر في ميدان التوحيد.

وقال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: ثمار العزلة الظفر بمواهب المنة، وهي أربعة:كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقيق المحبة، ولسان الصدق في الكلمة.

ثم ذكر للخلوة عشر فوائد:

١. السلامة من آفات اللسان، فإنَّ مَنْ كان وحده لا يجد معه من يتكلم، ولا يسلم في الغالب من آفاته إلا من آثرَ الخلوة على الاجتماع.

٢. السلامة من آفات النظر،فإنَّ من كان معتزلاً عن الناس سلم من النظر إلى ما هم مُنْكَبُّون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها، قال بعضهم: (من كثرت لحظاته دامت حسراته).

٣. حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض.

٤. حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها، وفي ذلك شرف العبد وكماله.

٥. السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأرذال، وفي مخالطتهم فساد عظيم.

٦. التفرغ للعبادة والذكر، والعزم على التقوى والبر.

٧. وُجْدانُ حلاوة الطاعات، وتمكن لذيذ المناجاة بفراغ سره، قال أبوطالب المكي في قوت القلوب: (ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد في الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده في العلانية).

٨. راحة القلب والبدن، فإن في مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب.

٩. صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة.

١٠. التمكن من عبادة التفكر والاعتبار، وهو المقصود الأعظم من الخلوة)[٢] .

هذه نبذة يسيرة من أقوال السادة العلماء الأفاضل، تُبين بوضوح أن الخلوة هي السبيل العملي الذي سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس، كي يقوى إيمانهم، وتصفو نفوسهم، وتسمو أرواحهم، وتتطهر قلوبهم، وتتأهل لتجليات الله تعالى.

أليس هذا التوجيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سبباً للتعرف على فاطر السموات والأرض ؟

٢ .ايقاظ الهمم في شرح الحكم لأحمد بن عجيبة: ١ / ٣٠ .
٣ . المصدر السابق ٣٠/١.

أليس هذا أساساً للأذواق والمواجيد الصوفية، وسبيلاً للكشف والفيض والإشراق والصفاء ؟ ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه"[١] .

أليس هذا الحديث دليلاً قاطعاً على مشروعية الخلوة لذكر الله تعالى ؟.

وفي هذه الخلوة يذكر الصوفي ربه خالياً فيغمره بأنواره ويحظى بمجالسته كما وررد في الحديث :(انا جليس من ذكرني)[٢] .

لا يدور بخَلدِه أي طائف يشغله عن ربه، حتى إنه لينسى نفسه في حضرة القدُس الأعلى. وما أحسن قول عمر بن الفارض رحمه الله تعالى معبراً عن تلك الحالة الشائقة:

ولقد خَلوتُ مع الحبيب وبَيننا سرٌ أرقُّ مِنَ النسيم إذا سرى
فدهشتُ بين جماله وجلالـهِ وغدا لسانُ الحالِ عني مخْبراً

فتفيض عيناه دمعاً مما عرف من الحق، ذاهلاً بالله خاشعاً له مستأنساً بحضرته:

وَليُّ الله ليس له أنيسُ سوى الرحمن فهو له جليسُ
فيذكرهُ ويذكرهُ فيبكي وحيدُ الدهر جوهره نفيسُ

فالعبد المقصر إذا أراد اللحاق بهؤلاء الأولياء المخلصين خلا بنفسه الأمارة بالسوء ؛ فعاتبها وزجرها وصدق في سيره إلى ربه، فرقَّ قلبه، وذرفت عيناه بالدمع حزناً وأسفاً على ضياع عمره في اللهو والغفلة قائلاً:

على نفسه فليبك من ضاع عمرهُ وليس له فيها نصيب ولا سهمُ

فانتبهَ من رقدته، وصحا من غفلته، وأقبل على ربه راجياً عفوه وغفرانه ومعاهداً إياه على طاعته وعبادته، ففرح الله بتوبته حين تاب، وأقبل عليه حين تقرب منه. قال تعالى في الحديث القدسي: (وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإذا تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيتُهُ هرولة) [من حديث قدسي أوله: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني. فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً...). الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد عن أبي هريرة رضي الله عنه]. واستحق . ببشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم . إظلال الله تعالى له يوم الحر الأكبر في ظل عرشه والناس في الحر ، قد صهرتهم الشمس في ذلك الموقف الرهيب.

وأخيراً فلعل القارئ الكريم بعد هذه النصوص الصريحة والنقول الكثيرة عن العلماء الأعلام الذين نأخذ عنهم تعاليم ديننا تبيَّنَ له أن الخلوة مشروعة في الإسلام، وليست مبتدعة، وأنها

١. رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ٣ / ٥١ / رقم الحديث / .٦٢٠
٢. رواه البيهقي في شعب الإيمان : ٢ / ٢٤٢ رقم الحديث / ٦٩٩ .

ليست غاية تقصد، بل وسيلة لشفاء القلب من علله وأمراضه، حتى يكون سليماً، فينجو صاحبه يوم الحساب الأكبر {يومَ لا ينْفَعُ مالٌ ولا بنونَ إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ}[١] .

وليست الخلوة عزلة دائمة، وانزواءً مستمراً عن الناس، فكما أن المريض يقضي فترة يسيرة من الوقت في المستشفى كي يتخلص من أمراضه الجسدية، ثم يخرج للعمل بصحة أوفر ومناعة أقوى، متلذذاً بنعيم العافية ؛ فكذلك المسلم يقضي في الخلوة فترة يسيرة، يخرج بعدها للحياة العملية، قوي الصلة بربه، عامر القلب بالإيمان واليقين متمتعاً بالمناعة القوية من تسرب بهارج الحياة الخادعة ومفاتنها المغرية إلى نفسه، وخصوصاً بعد أن اطلع على حقائقها الفانية، وتَذوَّقَ معنى قوله تعالى: **{كُلُّ مَنْ عليها فانٍ}**[٢] .

فكم نرى من الناس من يهتم بجسمه الفاني ويوفر له أسباب الصحة، ويفرغ له كثيراً من وقته للاستجمام والاستشفاء والراحة، فإذا دُعي إلى تطبيب قلبه وتهذيب نفسه، في فترة وجيزة يخلو فيها بربه، إذا به يُعرض ويستغرب، ويعتبر ذلك . لجهله . ضياعاً للوقت، وابتداعاً لا أصل له في الدين. فمثل هذا ينطبق عليه قول بعْضِهم:

تطبّبُ جسمكَ الفاني ليَبْقى وتتركُ قلبكَ الباقي مريضاً

فلو فَهم حقيقة الإسلام، وأنه دعا لإصلاح الأبدان والقلوب معاً لاهتم بقلبه، كما يهتم بجسمه:

يا خادمَ الجسمِ كم تسْعى لخدمته أتطلُبُ الربحَ مما فيه خسرانُ

أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسانُ

فعلى المؤمن أن تكون له خلوات يراقب بها ربه، ويحاسب نفسه على ما قدمت من خير أو شر .ولقد كان شيخي وسيدي محمد الهاشمي رحمه الله تعالى يرغب مريديه بالخلوة حيث يجلس المريد منفرداً في مكان منعزل عن الناس بعيد عن صخب الدنيا وضوضائها، ثم يأذن له الشيخ بذكر الاسم المفرد [الله] ليردده مستغرقاً جميع أوقاته في الليل والنهار، لا يتوقف إلا لصلاة أو طعام أو نوم، ولا يشغل نفسه بالتحدث إلى الناس، بل يتفرغ للذكر موافقة لقوله تعالى: **{واذكر اسم ربِّكَ وتبَتَّلْ إليه تبتيلاً}**[٣] .

ويواصل الذكر ملاحظاً قلبه طارداً عنه أنواع الوساوس والخواطر وصور الأكوان، جامعاً قلبه على الله تعالى، مستعيناً بما يمنحه شيخه من خبرته ومعارفه وأحواله وتوجيهاته.

وحينئذ ينفذ الذكر إلى سويداء قلبه ؛ فيرتسم الاسم المفرد فيه، وترتحل عنه الغفلة، وتزول الأغيار، ويشعر بحلاوة الأنس بالله تعالى، ويترقى في مدارج الأذواق والمعارف مما لا يستطيع البيان أن يعبر عنه، وليس له سوى الذوق إفشاء.

---

١ . سورة الشعراء:الآية ٨٨-٨٩.
٢ . سورة الرحمن: من الآية ٢٦.
٣ . سورة المزمل:من الآية ٨.

الخاتمة

من خلال الدراسة التي قمت بها لهذا الموضوع تبين أن الخلوة أمر مهم وجزء لا يتجزأ من مفردات المنهج ألعبادي لكل مؤمن الذي يجب أن يعمله يوميا لكي يكون على اتصال دائم مع ربه في دينه ودنياه فيعطي لكل حقه وهي نوعان:

أ . خلوة عامة، ينفرد بها المؤمن ليتفرغ لذكر الله تعالى بأية صيغة كانت، أو لتلاوة القرآن الكريم، أو محاسبة نفسه، أو ليتفكر في خلق السموات والأرض.

ب . خلوة خاصة: يقصد منها الوصول إلى مراتب الإحسان والتحقق بمد ارج المعرفة، وهذه لا تكون إلا بإشراف مرشدٍ مأذون، يُلَقِّنُ المريدَ ذكراً معيناً، ويكون على صلة دائمة به ليزيل عنه الشكوك ويدفعه إلى آفاق المعرفة، ويرفع عنه الحجب والأوهام والوساوس، وينقله من الكون إلى المُكَوِّن.

٣ . ولا يظنَنَّ أحد أن الخلوة خاتمة السير، بل هي أول خطوة في طريق الوصول إلى الله تعالى .

٤ . لا بد أن تتلوها خلوات ومجاهدات طويلة ومذاكرة متواصلة للمرشد بهمة وصدق واستقامة.

٥ . ملازمة على ذكر الاسم المفرد في الصباح والمساء، وعند كل فراغ، حتى يكون على اتصال

دائم بالله تعالى، وقد جمع بين مرتبتي الإحسان: بالمراقبة والمشاهدة ؛ اللتين أشار إليهما الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: (الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك)[1].

المصادر

١ . القرآن الكريم

٢ . إحياء علوم الدين الإمام الغزالي مطبعة مصطفى البابي الحلبي١٣٤٦ هـ .

٣ . إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣هـ مطبعة بولاق ١٣٢٣ هـ.

1. حديث جبريل صحيح البخاري : ١ / ٨٧ وصحيح مسلم : ١ / ٨٨ .

٤. إيقاظ الهمم في شرح الحكم لأحمد بن عجيبة المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .
٥. بستان العارفين للإمام الفقيه الحافظ أبي زكريا محي الدين النووي المتوفى ٦٧٦هـ مطبعة إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ .
٦ . بهجة النفوس شرح مختصر البخاري للإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ مطبعة الصدق الخيرية بمصر ١٣٤٨ هـ ٠
٧ . تفسير العلامة أبي السعود على هامش التفسير الكبير فخر الدين الرازي مطبعة اسطنبول ١٣٠٧ هـ .
٨ . التعريفات ، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، ،تحقيق : إبراهيم الأبياري ، (ط١ ،دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٤٠٥هـ).
٩ . تهذيب اللغة الأزهري ، موقع الوراق .
١٠. الجامع الصحيح سنن الترمذي – ٨ / ٤٠٤ ، رقم الحديث : ٢٣١٣ .الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي(ت ٢٩٧ هـ) تحقيق يوسف كمال الحوت ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م ٠
١١ . حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح مطبعة بولاق ١٢٩٠ هـ .
١٢ . دلائل النبوة البيهقي: موقع جامع الحديث
١٣ . سفر السعادة للفيروز أبادي المتوفى سنة ٨٢٦هـ
١٤. شرح صحيح البخاري للعلامة الكرماني المطبعة البهية بمصر ١٢٥٨ هـ .
١٥ . شرح صحيح مسلم للإمام النووي المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٨ هـ .
١٦ . الصحاح في اللغة الإمام إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٨ هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م
١٧. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٨ هـ .
١٨. غذاء الألباب شرح منظومة الآداب" للشيخ الإمام محمد السفا ريني الحنبلي

المتوفى سنة ١١٨٨ هـ مطبعة النجاح بمصر ١٣٢٤ هـ.
١٩. غذاء الألباب. الشيخ الإمام عماد الدين أحمد الو اسطي
٢٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري ابن حجر العسقلاني المطبعة البهية بمصر ١٣٥٨ هـ .
٢١ . فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري الديوبندي المطبعة البهية بمصر١٣٤٨ هـ .
٢٢. الفتوحات الأحمدية بالمنح المحمدية على شرح الهمزية سليمان الجمل المطبعة الخيرية بمصر١٣٠٣ هـ .
٢٣ . الفتوحات المكية محي الدين بن عربي المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٩ هـ .
٢٤ . الفروق اللغوية أبو هلال العسكري
٢٥ . قواعد التصوف لأبي العباس الشيخ أحمد الفاسي المشهور بزروق توفي سنة ٨٩٩هـ في طرابلس الغرب مطبعة مصر ١٣١٨ هـ ..
٢٦. لوامع الكوكب الدري في شرح الهمزية للبوصيري محمد بنيس مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٤٦ هـ .
٢٧ . العين الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي
٢٨. مختار الصحاح الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦ هـ)، حاح ، تحقيق: محمود خاطر ، (مكتبة لبنان ناشرون،بيروت ، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م) .
٢٩ . مذكرات في فقه السيرة للدكتور مصطفى السباعي.
٣٠ . مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدا لله الشيباني (ت ٢٤١ هـ) (ط ،مؤسسة قرطبة ، مصر، بلا . ت).
٣١ . المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الإمام الغزالي مطبعة صبيح وأولاده بمصر١٣٧١ هـ .
٣٢ .النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق طاهر احمد الزاوي و محمود محمد الطناحي عدد الأجزاء (٥) الناشر دار الكتب العلمية بيروت١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .